الفصل الرابع

العولمة الثقافية والسياسية وأثرها على الهوية العربية الإسلامية

العولمة وخطاب ما بعد الحداثة

أحب أن أمهد لموضوع العولمة بوضع العولمة ضمن منظومة المصطلحات التي تؤطر خطاب ما بعد الحداثة، فالمعروف عن هذا الخطاب أنه يسعى إلى هدم كل نظام وإعادة صياغة جهاز المفاهيم بحيث يصبح التفكيك هو السمة البارزة، تفكيك العقل لكي لا يصبح وحده المسؤول عن التفكير، وتفكيك القيم لكي لا تكون بمثابة حاجز يعيق تحقيق المصالح الشخصية والغرائز البشرية، وتفكيك النظام حتى يمكن تمرير الأفكار الهجينة والشاذة، وتفكيك الأمم والمجتمعات والدول حتى تعيد تشكيلها وبناءها وصياغة قيمها من جديد.

ما بعد الحداثة خطاب فَقَدَ ثقته في الحداثة بوصفها خطابا مُهادِنا في نظرها، وهي تحاول التجاوز والتمرد والثورة.

فالعولمة قياساً على ما بعد الحداثة هي ما بعد الرأسمالية أو الرأسمالية القصوى، هي ما بعد السياسة، هي ما بعد الثقافة، هي ما بعد الدولة والأمة، هي ما بعد الدين واللغة والهوية، هي إذن مشروع لإعادة صياغة العالم بعيداً عن المكونات السابقة، هي مشروع مفتوح محفوف بالمخاطر، هي أخيراً مغامرة.

التحولات العالمية وعنف العولمة

لقد تغير العالم في ربع القرن الأخير تغيرا يكاد يعيد تشكيل الخريطة الجغرافية والتاريخية والثقافية والروحية، إن لم يكن قد أعاد تشكيلها بالفعل، وهذا ما جعلنا نُحَسِّ أحيانا أننا لأول مرة في التاريخ نعيش عالماً جديداً بمثل هذه الجدة التي لا تعطي الإنسان فرصة للتفكير واتخاذ الموقف الملائم، بل يغرقه بفيض من الأفكار تدفعه مضطرا للانسياق وراء ما يحدث، وكأنه فَقَدَ قدرته على التحكم في توازنه.

وقد عبر عن هذا التحول الكاتب البريطاني (أنطوني جيدنز) حين قال: (كلما تفاقمت التغيرات التي تحدثت عنها في هذا الفصل أدت إلى تشكيل مجتمع عالمي لم يكن موجودا من قبل، ونحن أول جيل يعيش في هذا المجتمع الذي نكاد لا نرى ملامحه الآن. إنه يزعزع أنماط حياتنا أينما كنا. والآن في الأقل لا يعد هذا نظاما عالميا تمليه إرادة بشرية جماعية، وإنما هو فوضى ناجمة عن مزيج من التأثيرات)[1].

وقد ساعد على هذا التحول الرهيب أمران أساسيان في اعتقادي:

- **الأول**: هو ثورة المعلومات التي تعد ثورة حقيقية لا مجازاً، لقد أصبح ما كان في حكم الخرافي واقعا مدهشا، وأصبح (التوالد العلمي) بلا حدود.
- **والأمر الثاني**: هو أن هذه الثورة العلمية أصبحت تهيمن عليها وتوجهها مؤسسات سياسية وعسكرية واقتصادية، هي نفسها التي توجه الحضارة المعاصرة لتهيمن على الكوكب الأرضي كله.

---

(١) أنطون جيدنز، عالم جامح، ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١ ٢٠٠٣م، ص٣٩.

ليس ثمة من خطأ في الثورة العلمية المشار إليها، ولا أظن أن فينا من سيقف موقفاً سلبياً أمام الفتوحات العلمية، ولكن الخطر يأتي من المؤسسات المحتكرة للعلم والموجهة له، لقد ثبت واقعيا أن هذه المؤسسات هي مؤسسات مؤدلجة، بمعنى أنها لا تتمتع بحياد العلم وموضوعيته، بل هي مؤسسات تحمل أفكارا رهيبة، مشروعات فكرية وسياسية أقل ما يمكن أن توصف به أنها مشروعات استعلائية متكبرة، تعتقد أن العالم على ضلال إلا من اتبعها، وأنه لا يقوى على فعل شيء ما يعتمد عليها، وترى أن هذا العالم لم يعد يتسع للجميع، فهو فقط لمحتكري الثورة العلمية، وعلى الآخرين الالتزام والتبعية والتقليد.

هكذا يفكر القوي في عالمنا المعاصر، لقد انتفى البعد الأخلاقي والإنساني، ونؤكد ثانية أن ذلك لم يتم بسبب العلم بل بسبب المؤسسات الموجهة لهذا العلم.

في مثل هذا المناخ ظهرت العولمة، ليس بوصفها مقولة علمية مجردة حيادية، بل بوصفها مقولة إيديولوجية استغلت نتائج العلم المعاصر من أجل الهيمنة على العالم وتوحيده خارج حدود الثقافات والهويات الخاصة، ومن أجل أن يتم ذلك كان لا بد أن تتبنى إيديولوجية، لم تكشف عنها بشكل مباشر ولكن يمكن تبين معالمها من خلال الواقع.

إن العولمة تسير ضد منطق التاريخ، إذ ليس من المعقول أن يتم تهميش الهويات أو إلغاؤها وقد تشكلت عبر عشرا ت الآلاف من السنين وتحولت إلى مكوّن للأمم، ليس مجرد مكون ثقافي أو ديني أو أخلاقي، بل يمكن على سبيل الاستعارة أن نقول: إنها مكون بيولوجي مثل الكروموزوم المسؤول عن نوع الجنس البشري، فالبشر مختلفون ومتفقون، متميزون ويمكنهم العيش بهذا التمايز والإسهام في سعادة الإنسان، أما تحويل البشرية إلى هوية ثقافية واحدة فأمر مناقض للتاريخ، فـ(ليست هناك ثقافة عالمية واحدة،

وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت، وتوجد وستوجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادي من أهلها، على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة. من هذه الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع)[1].

وهي ضد منطق التاريخ أيضاً، لأنها ليست تطوراً طبيعياً في الحركة الثقافية أو السياسية أو الاقتصادية، كما قد يتوهم بعضهم، وإن كانت تطورا لشيء فإنما هي تطور للفكر الاستعماري الأوروبي، ومن هذا المنطلق يمكن عد العولمة هي المرحلة الاستعمارية الثالثة بعد الاستعمار العسكري والاستعمار الاقتصادي، وها هي ذي تمثل الاستعمار الشامل. وعلى الرغم من التداول الشاسع لهذا المفهوم فإنه غامض في نواح عدة، وكأن هذا الغموض متعمد حتى لا ينكشف السر، ويحل اللغز.

(١) محمد عابد الجابري. العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات. مجلة فكر ونقد، الرباط، العدد ١٠.

هوية العولمة

حين يسعى الباحث إلى تقديم تعريف علمي للعولمة سوف لن يعثر على تعريف يطمئن إليه، ويتخذه مبدأ بحثه، على الرغم من الاستعمال الواسع لهذا المصطلح إلى درجة أصبح فيها مهيمنا على الكتابات السياسية والاقتصادية والإعلامية، فقد أصبح المصطلح نفسه مهيمنا، كما تسعى العولمة إلى الهيمنة، فالمؤسسات الغربية لم تستقر على تعريف موحد، أو أنها لا تريد ذلك، مع أنها تقدم تحديدات لأهداف النظام العالمي الجديد الذي تعد العولمة وسيلة تطبيقه، وقد أحس بهذا الغموض والتضليل بعض الكتاب الغربيين، فقد كتب (جيدنز): (نظراً لشعبية مصطلح العولمة، يجب ألا يفاجئنا عدم وضوحه في جميع الأحوال أو ما هو رد الفعل الذي تشكل ضده)[1].

وما يقدم تعريفا للعولمة إنما هو تجميع لأفكار متناثرة من هنا وهناك، ترد أحيانا على ألسنة الرؤساء وأصحاب النفوذ السياسي والعسكري والاقتصادي في العالم، ذلك أن العولمة أيضا هي مشروع لم يتم تشكيله بعد، فهو في طور التشكل المتواصل وقد يخضع للتغير في أية لحظة حسب التغيرات التاريخية، وحسب ردود أفعال المجتمعات الأخرى، ولكن هذا لا يعني أن الفكرة الجوهرية للعولمة غير معروفة. إنها معروفة، ولكن أصحابها يرفضون البوح بها، حتى تظل عيوبها وأهدافها البعيدة مجهولة.

ويعود أمر غياب التعريف المحدد للعولمة في اعتقادي إلى كونها مقولة يود أصحابها إبقاءها بعيداً عن الفهم الكامل والصحيح وتقديمها في بعض مظاهرها الاقتصادية

---

(١) أنطوني جيدنز. عالم جامح. ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت. ط١، ٢٠٠٣م، ص ٢٦.

والإعلامية الإيجابية، حتى تظل سراً من جهة، ومن جهة ثانية حتى يتركوا فرصة للمجتمعات الأخرى لتعطيها المفهوم الذي تتصوره لتظهر وكأنها انبثقت من داخل هذه المجتمعات ولم ترد إليها من خارجها، وهذا أسوأ أشكال الاستعمار الفكري كما يشرحه (مالك بن نبي) في كتابه (الصراع الفكري). فتصبح العولمة في هذه الحالة عولمة ذاتية وهذه أخطر أنواع العولمة. لأن المجتمعات تتصور أنها تطور طبيعي في حركتها بينما هي قد سيقت مجبرة إليها.

وقد حاول بعض المعرفين اختصار هوية العولمة فحددها في كونها تقوم في أساسها على: (تصيير المحلي عالميا، فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalisation لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم).

النتيجة النهائية للعولمة أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد ونظام سياسي واحد وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هناك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعا لذلك نظام تعليمي واحد، وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشراً، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية. هذا هو الهدف النهائي المثالي. لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر بل مفروضة عليهم لظروف طارئة[1].

ولو كانت مثل هذه الأفكار والطموحات والأحلام من تأملات الفلاسفة والمفكرين والعلماء مطروحة بوصفها علم الإنسانية التي تسعى إلى الرقي بنفسها إلى

---

(١) جعفر شيخ إدريس.العولمة وصراع الحضارات. مقال. - مجلة البيان. اقتباس من موقعها في شبكة الإنترنت.

مستوى آخر أفضل من الوجود والعيش والحضارة، من غير أن تكون ملزمة لأحد بل متروكة للمجتمعات تسعى إلى تحقيقها كلما كانت الحالة الحضارية مناسبة من غير إكراه أو عنف ولا تضحيات بالثقافة واللغة والدين والتاريخ، لكان الأمر مقبولاً كما قبلت من قبل مشروعات المدن الفاضلة. أما أن يتحول المشروع إلى نظام يفرض بكل أشكال العنف والإرهاب فلن يزرع إلا فوضى عارمة في العالم، والحروب قمة أشكال هذه الفوضى.

وقد دخل المصطلح إلى مجال المعجمات، فأصبح يعني: (مذهب القائلين بأن الرأسمالية هي ديانة الإنسانية، وأن النسبية الفكرية ستكون لها الغلبة على المطلقات الإيديولوجية، وأن النسبية الثقافية هي المعول عليها، وليس مبدأ مركزية الثقافات، وأن العالم ينتقل حالياً ونهائياً وشمولياً وبشكل متسلط إلى الديموقراطية والتعددية وتشمله ثورة معلوماتية تنتشر في كل مكان من شأنها إلغاء الحدود بين الدول بحيث يصبح من السهل انتقال الناس والمعلومات على نطاق العالم كله، ويتم ذلك من خلال المنافسة والحوار والمحاكاة... وفي العولمة تحويل العالم إلى الرأسمالية، وتتم السيطرة عليه في هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد، وبذلك تتهافت الدولة القومية وتضعف فكرة السيادة الوطنية. ويؤول الأمر مع الثقافة إلى صياغة ثقافة عالمية واحدة تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية) [1].

ومع ذلك فثمة مفهومان للعولمة، مفهوم نظري لعولمة لم تتشكل بعد على أرض الواقع وهو ما ورد في التعريف المعجمي السابق، ومفهوم عملي وهو يتعلق بالجانب الذي تم تحققه من العولمة بالفعل ويتمثل في المكاسب التي حققها النظام العالمي الجديد

---

(١) عبد المنعم الحنفي. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط.٣. ٢٠٠٠م. ص٥٦٩.

الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا المفهوم الثاني هو مرحلة أولى من مراحل العولمة التي تتطور بسرعة لا يستطيع المتابع أن يضبط حركتها.

وقد ذهب بعضهم إلى أن العولمة ظاهرة تاريخية، عرفتها البشرية في تطورها الحضاري، ففي كل مرحلة كانت حضارة ما تهيمن على بقية الحضارات، وفي زمن ما كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية. هذا الطرح من الناحية الوصفية صحيح لكنه من حيث الأهداف الكبرى أمر متحفظ عليه، فثمة فرق كبير بين عالمية الحضارة الإسلامية والعولمة المعاصرة.

العولمة والعالمية الإسلامية

قد يبدو لبعض المتابعين أن الإسلام يتضمن مشروعا شبيها بمشروع العولمة، إن لم يكن هو ذاته، والحقيقة أن هناك فرقا جوهريا بينهما، فالعولمة تهدف إلى تحويل العالم إلى مجتمع واحد في الثقافة والفكر والتعليم والذوق وغير ذلك، أي أنها تسعى إلى إجبار العالم على نوع واحد من الحياة، وهذا أمر مناقض للفطرة البشرية التي خلق عليها الناس ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات:١٣].

أما الإسلام فيحترم الهويات والخصوصيات وينبذ الإكراه، يقوم المشروع الإسلامي على الاعتراف الأولي بالتنوع والاختلاف الثقافي واللغوي، وحتى الدين لا يفرض بالقوة إنما بالإقناع. فثمة فرق واضح بين العولمة وعالمية الإسلام. فلم يكن الإسلام غازياً مثلما يطبق مشروع العولمة الآن.

لقد عاشت في ظل الحضارة الإسلامية شعوب وقوميات وأديان وأسهموا في صناعة منجزات الحضارة الإسلامية، ولم يقصوا أو يهمشوا. والإسلام أقام مشروعه الحضاري على أساس من المبادئ التي تحفظ للإنسان حريته وكرامته وحقوقه، بل حافظ الإسلام على ثقافات الشعوب ولغاتها وأخلاقها. لكن مشروع العولمة يقوم على منطق استعماري تسلطي يتدخل حتى في الأمور الأسرية التي يبدو أنها بعيدة عن تأثيرات العولمة؛ فقد بدأت أنظمة (القيم العائلية التقليدية بالتحول أو أنها تحت ضغط شديد في الكثير من البلدان ولا سيما بعد أن شرعت النساء بالسعي لتحقيق المزيد من المساواة) [1].

---

(١) جيدنز، عالم جامح. المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء. ص ٣٢.

هذا هو الفرق الأولي بين العولمة والعالمية الإسلامية، وسنقف على المزيد من معالم الأيديولوجية العولمية في الفقرات الآتية:

إيديولوجيا العولمة

تعتمد العولمة على نوع من الوثنية المعاصرة، فهي تدعو إلى نوع من التعامل على أساس المصلحة (الاقتصادية والسياسية والعلمية)، وعدم إيلاء القيم الخلقية والدينية أي اهتمام، لأن هذه القيم في اعتقادها تعيق التواصل الكوني كما تراه، كما تعيق تسويق مشروعها «الحضاري» ذلك أنها تسعى إلى هيمنة حضارية، أو إلى بناء حضارة واحدة يتبعها الجميع، وقد استقام لها ذلك عقب سقوط القطب الآخر الذي كان بمثابة الكابح لهذا الحمق. لذا فهي تعتمد إستراتيجية الإقصاء والإلغاء والتهميش، تلك الإستراتيجية التي انتقلت إليها من المركزية الغربية التي تنهج سياسة المركز في مواجهة الأطراف، والأغرب (ولعله لا غرابة في الأمر). أن يصرح الرئيس الأمريكي السابق (بيل كلينتون) قائلاً:(إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتحويل العالم إلى صورتنا) (١).

ولعل أهم سلاح تستعمله للتغلب على قيم الأطراف هو إستراتيجية الاتهام بالإرهاب أولاً، والـمُرُوق الدولي ثانياً، فكل منظومة سياسية أو ثقافية أو دينية تُعَدُّ في مشروع العولمة إرهاباً إلا إذا تمت إزالتها والتخلي عنها في المؤسسات السياسية والتعليمية بل والدينية أيضا، لأنها تريد ديناً بلا دين، وتستعمل من أجل إنجاح هذه الإستراتيجية

---

(١) عن مجلة البيان الإماراتية، مقال واقع العالم اليوم. ٢٢/ ٦/ ١٩٩٦م.

كل الوسائل الضاغطة من البيانات السياسية المتهمة إلى الحصار الاقتصادي إلى الصواريخ العابرة للقارات، ولسنا ببعيدين عما حدث في عالمنا العربي والإسلامي.

وأكثر من هذا فإن ثقافة العولمة تسعى إلى تهميش المؤسسات الدولية أو تحويلها إلى مؤسسات تابعة تخدم مشروعها، وليست مؤسسات لكل الدول ومن أجل مصالح الدول كلها، لقد تحول الكل الآن وأصبح الجزء هو الكل وأصبحت الدولة الواحدة هي كل العالم، وما العالم إلا محافظات خاضعة لها، وهكذا تم التضييق على منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها وخصوصا مجلس الأمن الذي حوّلته أو على الأقل تسعى إلى تحويله إلى مؤسسة تابعة لها. في منطق العولمة والأجهزة التي تسيرها ينبغي أن يكون الكل تابعا، ولن يسمح بالخروج على الصف وإلا كان ذلك مروقاً أو إرهاباً أو نحو ذلك. (ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضاً -وبالدرجة الأولى - إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم) [1] من خلال ترسانة من الوسائل المختلفة.

وسائل تمرير العولمة

أشرنا إلى أن العولمة تسعى إلى فرض مشروعها باستعمال كل الوسائل دون استثناء أو تحفظ، من الإغراء والاستمالة إلى التهديد والضغط السياسي إلى الحصار الاقتصادي إلى شن الحروب المدمرة التي تورط فيها العالم كله. يتحدث بعض الباحثين الغربيين عن العولمة الإعلامية وكيف تقوم المؤسسات الإعلامية بتسويقها إلى البلدان النامية، فيقول: (ينطلق فيض ثقافي من بلدان المركز ليجتاح الكرة الأرضية، يتدفق على شكل صورة... كلمات...قيم أخلاقية، قواعد قانونية...مصطلحات سياسية..معايير.. كفاءة.. ينطلق

---

(١) محمد عابد الجابري، مجلة فكر ونقد، موقع الجابري الإليكتروني.

كل هذا ليجتاح بلدان العالم الثالث من خلال الإعلام المتمثل في إذاعات وتليفزيونات وأفلام وكتب وأسطوانات فيديو وأطباق استقبال فضائية ينطلق عبر سوق المعلومات التي تحتكرها الوكالات العالمية الأربع: أسوشيتد بريس ويونايتد بريس (الولايات المتحدة) ورويتر (بريطانيا) وفرانس بريس (فرنسا)، وتسيطر الولايات المتحدة على ٦٥ في المائة من تدفق هذه المعلومات.

هذا الفيض من المعلومات يشكل رغبات وحاجات المستهلكين، أو بتعبير آخر الأسرى السلبيين، يشكل أنواع سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم، وبذلك تذوب الهويات الذاتية في هذا الخضم من الغزو، لأن مواد الغزو تصنع في معامل الغرب وفق معاييره ومواصفاته).[1]

هذا النوع من العولمة، وهذا النمط من أنماط إستراتيجيتها نسميها المرحلة التمهيدية للغزو، القائمة على سياسة الاختراق التي تمررها وسائل الإعلام التي لم يعد أحد في مقدرته الوقوف في وجهها.

وثمة قناة أخرى لتمرير مشروعات العولمة هي المؤتمرات العالمية ففي سبتمبر ١٩٩٤م عقد في القاهرة المؤتمر العالمي للسكان والتنمية، وفي سبتمبر ١٩٩٥م عقد في بكين مؤتمر المرأة، وفي يونيو ١٩٩٦م عقد في إستانبول مؤتمر الإيواء البشري، وهذه المؤتمرات كانت تعقد في الظاهر تحت إشراف الأمم المتحدة، ولكنها في الجوهر تحت إشراف المؤسسات التابعة للعولمة، ولنا أن نقول: إن الأمم المتحد قد صارت إحدى هذه المؤسسات. لقد عملت هذه المؤتمرات إلى إعادة تشكيل الخارطة الفكرية والثقافية للعالم حتى تتواءم مع متطلبات العولمة وثقافتها الجديدة.

---

(١) عن مجلة البيان. موقعها في الانترنيت بتاريخ: ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٤م.

هذا وللعولمة أشكال وطرق وأوجه وأقنعة متعددة تظهر في كل مرة بقناع مستفيدة من ثقافة التبشير النصراني والإستراتيجية الاستعمارية معا، أي من الخطاب المسالم والخطاب العنيف معا. وقد تلقت الثقافة العربية خطاب العولمة، كما تلقاه الآخرون، وانتشر في سنوات قليلة كما لم ينتشر أي مصطلح آخر قبله، وكانت ردود الفعل في الخطاب العربي متفاوتة، وإن كانت في أغلبها تجمع على عدم براءتها.

العولمة في الخطاب العربي

يكاد يجمع المفكرون العرب المعاصرون المتزنون بمذاهبهم المختلفة وتياراتهم المتعددة على صياغة خطاب سلبي ضد العولمة، حتى ولو ذهب بعضهم إلى ضرورة التفاعل معها تفاعلا إيجابيا، بمعنى الاستفادة من منجزاتها العلمية الهائلة، غير أن خطابهم يتضمن تحديد العولمة على أنها نوع من الاستعمار الجديد الذي يسعى إلى الهيمنة الشاملة على العالم كله وإخضاع البشرية كلها لنظام واحد في الفكر والسياسة والاقتصاد والفن وغيرها، يقول (حسن حنفي): (العولمة هي أحد الأشكال المعروفة للهيمنة الغربية، ليس عن طريق الجيش والعسكر وليس فقط عن طريق الاقتصاد بل عن طريق السوق).

ويضيف: (فالعولمة ليست فقط تغريب العالم، بمعنى أن ينتشر الغرب من المركز إلى المحيط إلى الأطراف، وليست فقط أمركةً، لأن أمريكا هي التي تتصدر العالم الآن لكونها القطب الوحيد الموجود، ولكنها أخطر من ذلك فهي سيطرة اتجاه واحد، رأي واحد، فكر واحد، وكل دولة تتجرأ على أن تخرج من بيت الطاعة..سيكون العدوان العسكري لها بالمرصاد)[1].

---

(١) حسن حنفي، كتاب حقائق العولمة العالمية - دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٤م ص٢٥٦.

ومن وجهة نظر علمانية يقول (نصر حامد أبو زيد): (لقد كشفت حرب الخليج الثانية أن القوتين السياسية والعسكرية هما الوسيلة التي ستحقق من خلالها هيمنة الحياة الأمريكية على العالم، إنها ليست قوة الحضارة باتصالها الحر المنظم مع الحضارات الأخرى وإنما هي القوة السياسية والعسكرية التي تفرض نوعا بعينه من أسلوب المعيشة والقيم الحضارية على الآخرين، ولا حاجة لتوضيح أن القوة السياسية والعسكرية قائمة على القوة الاقتصادية المتزايدة في إطار عملية العولمة)[1].

ومن منظور إسلامي يقول (محمد محفوظ): (إن مشروع العولمة لا يمكن فصله بأي شكل من الأشكال عن المشروع الثقافي الغربي، إذ هو إحدى إستراتيجياته..إن القيم التي تبثها وسائل ومؤسسات العولمة، والسلوكيات التي تعطى لها الأولوية، هي قيم وسلوكيات لا تنسجم والمعايير والقيم العليا التي تنادي بها الثقافة العربية والإسلامية)[2].

ولعل أبرز المتحمسين للعولمة الكاتب اللبناني (علي حرب) الذي يعد العولمة فتحاً حضارياً، وينتقد بكثير من الحدة المتحفظين على خطابها[3].

وسيكون من الصعب أن نستعرض بالتفصيل نصوصا لمفكرين آخرين، يكفي أن نقول: إن الخطاب العربي المعاصر الإسلامي والقومي واليساري، باستثناء بعض المفكرين العلمانيين، يقف ضد مشروع العولمة ويقدمها بوصفها مشروعاً استعمارياً هداما ينبغي الوعي بأهدافه في الهيمنة وإلغاء الهويات والخصوصيات الذاتية.

---

(١) من مقال لنصر حامد أبو زيد منشور في موقع قنطرة الإليكتروني.

(٢) محمد محفوظ. الحضور والمثاقفة. المركز الثقافي العربي. بيروت الدار البيضاء.ط.١. ٢٠٠٠. ص.١١٥.

(٣) علي حرب، حديث النهايات، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، وينظر خصوصا نقده لمحمد عابد الجابري.

هذا الموقف العربي يؤكد أن العولمة تمارس عنفا واضحا ضد الثقافات، عنفاً لا يدخل في الحوار الحضاري الذي كان شعار الخطاب العربي المعاصر، وما يزال خطابه.

عنف العولمة

لكون العولمة مشروعاً مناقضاً لمنطق التاريخ، فإن مؤسساتها تسعى إلى تحقيقه بالوسائل الضاغطة، بحيث تجبر المجتمعات والدول للدخول في مشروعها بالعنف والقوة، ومن تلك الوسائل:

١- احتكار التاريخ: وقد بدأت عملية احتكار تفسير التاريخ والحركة التاريخية من كتابات المركزية الغربية والتي صاغ (صامويل هانتنجتون) مؤخراً مقولتها الأساسية في نهاية التاريخ، ومضمونها المركزي القول بأن التاريخ قد انتهى عند الرأسمالية الغربية التي تمثل النظام المثالي الأصلح لكل البشرية في كل مكان. وبالتالي فإن الثقافات الأخرى هي ثقافات شاخت أو ما تزال قاصرة ولم تعد قادرة على مسايرة التغيرات العلمية والاقتصادية والسياسية المعاصرة، لذا ينبغي إلغاؤها أو إلحاقها بثقافة العولمة.

٢- تفكيك الدول: (وتفتيت الأمم والتكتلات القومية في الأطراف على أسس إثنية وطائفية ضيقة، فهذه التكوينات القومية يعدها الرأسمال المعولم عائقاً وحاجزاً أمامه وأمام السوق العالمية التي يهيمن عليها، لذلك يسعى إلى تكسيرها وتفتيتها فإنه من الأسهل عليه دمج الكيانات الإثنية والطائفية الهشة في العالمية المعولمة من دمج الأمم والتكتلات القومية الكبرى فيها. لذا رأيناه يؤدي دوراً أساسياً في تفتيت الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، ويسعى إلى تفكيك الهند والعراق والسودان

ومصر والجزائر وغيرها من الدول العربية والإفريقية والآسيوية)[1].

٣- التدخل من تلقاء نفسها لتغيير النظم السياسية التعليمية والاقتصادية في الدول التي تبدي تحفظات على النظام العالمي الجديد الذي تقوده، والعمل على إقناع الرأي العام العالمي ومؤسساتها القانونية بمشروعية ما تقوم به؟. فمن خوَّلها يا ترى مثل هذا التدخل؟ وبأي حق تدعي مشروعيته، ليس من حق سوى حق القوة. وليس من الغريب أن يولد هذا العنف أشكالا من المقاومة التي تتباين من مجموعة إلى أخرى حسب الرؤية الفكرية لكل مجموعة.

ردود الفعل ضد العولمة

كان من الطبيعي أن هذا العنف الذي تمارسه العولمة ضد الثقافات والمجتمعات واللغات والديانات أن يولد حركة مواجهة قد تكون عنيفة أحيانا وسياسية أحياناً أخرى، كان لا بد: أن تظهر حركات تعمل على إحياء الهوية لأنها جوهر الكينونة البشرية، وقد اتخذت هذه الحركات مناهج متعددة في العالم الإسلامي ويأتي في مقدمتها تطور الصحوة الإسلامية وتشكلها في أحزاب سياسية أو جمعيات ثقافية واجتماعية وخيرية أو دعوية، وما تبع ذلك من نشر الكتاب الإسلامي والشريط الإسلامي والمواقع الإلكترونية الإسلامية والفضائيات الإسلامية وغيرها من وسائل توصيل خطاب الهوية.

وقد اتخذ إحياء الهوية عند آخرين طريق المقاومة المسلحة، ومن ثم فقد تم شن الغارات المسلحة على مؤسسات العولمة في كثير من البلدان وعلى رأسها الولايات المتحدة ذاتها وفي داخلها. وليس مهما الآن أن نحكم على طبيعة هذا العمل العسكري،

---

(١) هشام غصيب. العولمة والهوية القومية، دار نهضة مصر - القاهرة - ص١٧٣ - ط٢.

مع أن معظمنا يدينه، لكن المهم أن نعرف أنه من باب رد الفعل الطبيعي لهيمنة العولمة، فالعولمة نفسها على يقين من أنه سيكون لها أعداء، وهي مستعدة لقبول ما سيقوم به هؤلاء الأعداء.

عودة الفكر اليساري

من جانب آخر تبين لكثير ممن كانوا ضمن المنظومة اليسارية أن العولمة نوع من النظام المتوحش، الذي يسعى إلى الإتيان على الأخضر واليابس، وحين قارنوا بين الفكرين الرأسمالي المتوحش واليساري فضلوا العودة إلى اليسارية التي لم تصل أبداً إلى هذا التكبر والغرور والاستعلاء من خلال الحروب المتواصلة التي أصبحت تشنها الولايات المتحدة على دول العالم.

تأثيرات العولمة في المنطقة العربية

ومن المؤسف أن تكون مجتمعاتنا العربية من أوائل المجتمعات التي تنعكس عليها آثار العولمة، بحكم العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بينها وبين أوروبا والولايات المتحدة، وبحكم القرب الجغرافي، وربما العلاقات التاريخية أيضا، لقد بدأت ضغوط العولمة تؤثر في اقتصاديات المنطقة وثقافتها وسياستها، وأصبحت ملفات المشكلات المحلية والإقليمية في يد الولايات المتحدة، وأصبحت الحلول تصنع في مؤسسات العولمة عن طريق أجهزتها النافذة مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة الدولية: (الجات) وغيرها. وأصبحت المبادرات الأمريكية لإيجاد حلول لمشكلاتنا القومية أو الوطنية تتداول في الصحافة العربية أكثر مما تتداول الحلول المحلية.

لكن أبرز الأخطار التي تواجهنا بها ثقافة العولمة هي ما يأتي: إن العولمة تنطلق من وضع الهويات بين قوسين، أو بعبارة أخرى وضع الهويات جانبا والدخول في حركية العالم بهوية دون هوية، أي إلغاء المرجعية الدينية والأخلاقية والقومية أو ما إلى ذلك، وباستدعاء كلمة الرئيس الأمريكي السابقة، سوف يكون البديل الفكري هو (القيم الأمريكية الصالحة لكل الشعوب)، إن العولمة تريد تجميع العالم على شيء واحد ولن يتم ذلك إلا بالبدء بإلغاء الهويات المحلية لأنها العائق أمام تحقق المشروع العولمي، ونحن لا نستطيع أن نكون نحن، عرباً مسلمين إلا بهويتنا، ولن يكون الأمر سهلاً أن نحافظ على هويتنا ونحن لا نملك وسائل الدفاع أو المحافظة عليها، الوسائل العلمية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

وقد تناول (الجابري) مسألة العلاقة بين الهوية الثقافية والعولمة حين كتب:

(لا تكتمل الهوية الثقافية، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن والأمة والدولة.

الوطن: بوصفه «الأرض والأموات»، أو الجغرافية والتاريخ وقد أصبحا كياناً روحياً واحداً، يعمر قلب كل مواطن. الجغرافيا وقد أصبحت معطى تاريخياً. والتاريخ وقد صار موقعا جغرافيا.

الأمة: بوصفها النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة: وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبر عنها الإرادة الجماعية التي يصنعها حب الوطن، أعني الوفاء لـ «الأرض والأموات»، للتاريخ الذي ينجب، والأرض التي تستقبل وتحتضن.

الدولة: بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة، والجهاز الساهر على

سلامتهما ووحدتهما وحماية مصالحهما، وتمثيلهما إزاء الدول الأخرى، في زمن السلم كما في زمن الحرب.

ولا بد من التمييز هنا بين «الدولة» التي هي كيان مشخص ومجرد في الوقت نفسه، كيان يجسد وحدة الوطن والأمة، من جهة، وبين الحكومة أو النظام السياسي الذي يمارس السلطة ويتحدث باسمها من جهة أخرى. وواضح أننا نقصد هنا المعنى الأول.

وإذن، فكل مس بالوطن أو بالأمة أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية والعكس صحيح أيضا: كل مس بالهوية الثقافية هو في الوقت نفسه مس بالوطن والأمة وتجسيدهما التاريخي: الدولة[1].

والعولمة تقوم أساسا على ضرب هذه العناصر الثلاثة، فليس في فلسفة العولمة مكان لمثل هذه المصطلحات في الفكر ولا في الواقع، فالعولمة تروج مقولة (إن الدولة القومية فقدت التأييد الرأسمالي لوجودها.. وأصبحت عبئاً على الاقتصاد الرأسمالي تسعى الرأسمالية إلى تفكيكه وإزالته، وهذا ما قاله الكاتب الياباني (كينيشي أوهماي): إن مرحلة الدولة قد انتهت، فالدول اليوم أصبحت مجرد نسج من الخيال)[2].

وهذا هو الواقع اليوم، لقد فقدت أنظمة العالم الثالث جزءا من سيادتها على دولها، بحكم التدخل السافر لمؤسسات النظام العالمي الجديد، وأصبح التعريف القانوني للدولة يفتقر إلى عنصر السيادة على كل الكيان المسمى دولة. فكيف يمكن التعامل مع هذه العولمة وما أفضل الطرق لمقاومةٍ ليست معرضةً للانكسار؟

---

(١) محمد عابد الجابري، فكر ونقد، المعهد العالمي للفكر العربي والإسلامي - ديترويت - ص٢٥٧.

(٢) انظر عالم جامح. ص: ٢٧.

كيف نواجه العولمة؟

كان يمكن لمجتمعاتنا العربية أن تكون في موقع أفضل مما هي عليه الآن، بحكم ما تتمتع به من موقع إستراتيجي، وثروات مختلفة، ومواد أولية، وخبرات بشرية، وكفاءات علمية تؤهلها للانتقال إلى مجتمعات متقدمة، ولكن قصورها في مجال تنظيم الدولة وخصوصا النظام السياسي أجل مثل ذلك التقدم إن لم يكن قد أفشله تماماً. وهذا ما يجعلنا اليوم نتحدث من موقع رد الفعل، وهو موقع ضعيف. هكذا وجدنا أنفسنا اليوم نطرح سؤالاً ليست الإجابة عليه بالأمر الهين أبداً: كيف نواجه العولمة؟

سنكون في خطر إن تصورنا أن العولمة مرحلة عابرة، وسنكون مخطئين إن كنا نعتقد أننا في منأى عنها، وأننا لن نخسر في مواجهتها، وسنكون مهزومين في المقابل إذا قبلنا بها واندمجنا في مشروعها، ولذلك لا بد من التعامل الذكي الذي يكلفنا أقل الخسائر، مع العلم أن كل مواجهة معها ستكلفنا شيئا من الخسائر، ولكن أن نخسر قليلاً ونربح ولو قليلاً أيضاً أفضل من أن نخسر كثيراً، وعليه فأنا أعتقد أنه لا بدَّ مما يأتي:

أولاً: الناحية النظرية.

من الناحية النظرية، ينبغي عدم جعل العولمة قَدَرَاً مَحْتُومَاً ينبغي الاستسلام له، بل التعامل معها على أنها مرحلة من مراحل المواجهة الحضارية التي واجهت الأمة العربية وما تزال تواجهها، وأن نقوي في ذواتنا القدرة على المواجهة وأن نثبت إيماننا بهويتنا، بمعنى أنه لا ينبغي أن نواجه العولمة من منطلق الضعيف المهزوم بل من منطلق القوي بفكره ودينه وثقافته. هذا الإطار النظري هو الذي سيمكن الجانب العملي من الصمود والمواجهة والتحدي.

● ثانياً: الناحية العملية.

أما على المستوى العملي فإن الأمر يتطلب ضرورة التحديث في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية، لأن هذا التحديث سيقلل من ضغوط المشروع العولمي علينا من جهة، ويجنبنا العودة إلى الغرب في كل مطالبنا واحتياجاتنا، ويجنب أفراد مجتمعاتنا من تأثيرات العولمة السلبية، ثم إن هذا التحديث ضرورة حضارية لا نستطيع البقاء على الهامش في عالم جامح لا يعترف إلا بالقوي علمياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

ضرورةَ فَهْمِ ما يجري من تغيرات عالمية في المجالات المختلفة، وكيف يجري وما الغاية منه. بعضنا يتحدث عن الغرب كأنه مشهد بسيط، والغرب ليس كذلك، إنه كيان معقد ليس من السهل التعرف على ما يجري في مؤسساته، وليس من السهل التعرف على أهدافه وغاياته، وليس من السهل معرفة منهجياته وأسراره، إن محاولة التعرف على العالم من خارجه، أي من داخل ثقافتنا لم يعد بالأمر الممكن، لذا وجب التعرف إليه من داخله، وهذا ما فعله الغرب نفسه بالنسبة للآخر فقد اتصل به وتفاعل معه من داخله. الغرب يعرفنا الآن بشكل جيد، ومع ذلك فما يزال يتابع المتغيرات التي تحدث من خلال غرف عمليات يتابع من خلالها أي حركة، يرصدنا من الأرض ومن السماء، ومن كل جانب. فمن أجل الدفاع عن أنفسنا ينبغي التعرف أولاً عما يحيط بنا.

ضرورة التفاعل الحضاري مع المتغيرات الدولية من منظور حوار الحضارات، وليس من منظور التبعية الساذجة.

إن التخندق وراء حدودنا الجغرافية والثقافية لن يكون أبداً حصناً لنا ضد التأثيرات التي تهجم علينا من خارج حدودنا. وعليه فالتفاعل الموجه والمبرمج هو سبيلنا، حتى ولو كنا في منأى عن تحديات العولمة. وهذا هو منهج الحضارة الإسلامية، أيام كانت في عز ازدهارها، في التفاعل الحضاري.

إن هذا التفاعل الحضاري هو ما يضمن لثقافتنا بعض الحياة والحيوية ويجعلها قادرة على إنتاج الأفكار والمشروعات الحضارية.

ضرورة الحفاظ على هويتنا والدفاع عنها وهو المسعى الأصلي الذي نهدف إليه، والحفاظ يتم من خلال وسائل عديدة، إما بتطوير وسائل التعليم ومناهجه، أو تطوير وسائل الدعوة وطرقها، قبل أن يفرض علينا التطوير من الخارج، وقد بدأ بالفعل يحدث ذلك.

ينبغي ألا تكون الحداثة التي نسعى إليها على حساب أصالتنا، فالحداثة لا تتنافى مطلقاً مع أي مكون من مكونات هويتنا. بل إن العمل على إيجاد السبل العلمية الكفيلة بالحفاظ على أصالتنا هو في ذاته مظهر من مظاهر الحداثة، فلتكن الحداثة هي وعينا بذاتنا وبالآخر معا، وليكن الحافز المحرك لنا هو المستقبل.

هذا لا يعني أن الأمر بسيط وسنصل إلى النتيجة بسهولة أو أن ندفع الضرر بسهولة أيضا، ذلك أننا فعلا في مأزق، وأن هويتنا في مأزق، لقد تحدث بعض أنصار العولمة عندنا عن مأزق الهوية في ظل العولمة[1] ونحن نتفق معه، لأنه من الصعب الخروج من المواجهة دون خسائر أبداً. فهويتنا لا تملك وسائل الحفاظ على ذاتها، فكيف بالمواجهة؟

---

(١) انظر على حرب. حديث النهايات، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١. ٢٠٠٠. ص٥٠.

تعريف العولمة ومفهومها

تعدُّ «العولمة» من أكثر العناوين والمصطلحات استخداماً في عصرنا الحاضر، بل أكثر قضايا العصر المُثارة على نطاق العالم الواسع. ورغم كثرة ما كُتِب فيها، لم يتفق الباحثون والمفكرون على تعريف واحد لها، وتعددت مناهج الباحثين في تعريف العولمة، فركز البعض على أحد أبعادها، قي حين حاول البعض أن يعرفها بتعريفات تنسجم مع موقفه منها وتوجهاته من حيث الرفض أو القبول.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أقرب تعاريف العولمة إلى الدقة هو:

(أن العولمة هي دمج ودمقرطة ثقافات العالم، واقتصادياته وبنياته التحتية، من خلال الاستثمارات الدولية، وتنمية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وتأثير قوى السوق الحرة على الاقتصاديات المحلية والإقليمية والعالمية).[1]

ومنهم من يقول: (إنها حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية).[2]

وهناك من يرى أن العولمة: (هي إقحام الجميع في دخول ترس الآلة العالمية بسبب الثورة الجامحة للمعلوماتية وتطور تقنية الاتصالات، وبذلك يكون مصير الإنسانية مُوَحَّداً).

وعندما نذكر مصطلح «العولمة»، أو نسمعه، فإن الذهن يتجه فوراً إلى الكونية، أي إلى الكون أو العالم الذي نعيش فيه، ومن هنا ندرك أن المصطلح يعبر عن حالة من تجاوز

---

(١) د. حسن حنفي: حقائق العولمة العالمية، ص ٨٣.

(٢) د. السيد عليوة: إدارة الصراعات الدولية، دراسة في سياسات التعاون الدولي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٤٠.

الحدود السياسية الراهنة للدول إلى آفاق أكثر اتساعاً تشمل العالم بأسره. وهذا يعني تنازل الدولة الوطنية، أو حملها على التنازل، عن حقوق لها، لصالح «العالم»، أو بعبارة أدق، لصالح المتحكمين في هذا العالم.

والصيغة الصرفية للفْظَةِ «عولمة»، هي «فَوْعَلَة»، وقد فرضتها على اللغة العربية حاجة العصر وما طرأ عليه من مستجدات. وهي تدل على تحويل الشيء إلى وضعية أخرى مثل «قَوْلَبَة» من «قَوْلَبَ»، أي وضع الشيء في صيغة قالب... الخ. ومن ثم، يكون معنى «العولمة» هو وضع الشيء على مستوى «العالم»[1]، فعندما نقول مثلاً عولمة النظام الاقتصادي، أو عولمة السياسة، أو عولمة الثقافة، فإننا نعني تحول كل منها من الإطار القومي ليندمج ويتكامل مع النظم الأخرى المثيلة لها في العالم.

لقد ظهر مصطلح العولمة أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد، غير أنه لم يعد مصطلحاً اقتصادياً محضاً، فالعولمة الآن يجري الحديث عنها بوصفها نظاماً أو نسقاً ذا أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد. إنها الآن نظام عالمي، أو يراد لها أن تكون كذلك، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال... الخ، كما يشمل أيضاً مجال السياسة والفكر والإيديولوجيا. والعولمة هي فرض نمط أو نموذج معين على البشر جميعاً؛ بما يعنيه ذلك من القضاء على الخصوصية، والمنافسة، والتنوع، والاختلاف، الذي هو قانون الله النهائي غير القابل للتعديل أو التغيير.

ومصطلح «العولمة» هو ترجمة لكلمة Globalization الإنجليزية التي ظهرت أول الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نفترض، أن الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى

---

(١) محمد عابد الجابري - حقائق العولمة العالمية. دار التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م ص١٣٥.

إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل العالم كله.

وقد رأى الباحثون أن العولمة في صورتها الراهنة هي الدعوة إلى تنميط العالم بالنمط الغربي، أو بعبارة أدق، هي الدعوة إلى توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله. لذا نجد هناك من يقرن بين العولمة وبين «الأمركة»، بصفتها مَعْنِية بنشر الطابع الأمريكي وتعميمه[1].

إن تحَكُّم الولايات المتحدة الأمريكية في أكثر من ٦٥٪ من وسائل الإعلام العالمية، ساعدها إلى حد بعيد في نشر الطابع الأمريكي.

ولما كان من اليسير على الولايات المتحدة نشر القيم والمبادئ الأمريكية، لامتلاكها وسائل القوة الاقتصادية والعسكرية، كان من البديهي أن تسخر هذه العولمة لصالحها.

فالعولمة هي هذا النظام العالمي الجديد، أحادي القطب، يدور في فلكه كافة دول العالم، ويسيطر اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وعسكرياً وتكنولوجياً ومعلوماتياً، وتلعب فيه الولايات المتحدة دوراً فاعلاً ومحركاً وأساسياً.

● نشأة العولمة:

لقد تعددت الآراء في تحديد التاريخ الدقيق الذي نشأت فيه ظاهرة العولمة، وكذا مراحل تطورها[2]. فيربطها البعض بفترة الكشوف الجغرافية في الغرب، التي تم جزء كبير منها في القرن الخامس عشر الميلادي، ويذهب البعض الآخر إلى تحديد تاريخها

---

(١) محمد عابد الجابري - مرجع سابق ص١٣٧.

(٢) الخضيري، محسن أحمد (٢٠٠١)، العولمة الاحتياجية، القاهرة، الناشر مجموعة النيل العربية.

بالقرن الثامن عشر، حيث شهدت أوروبا في هذا القرن تطورات إنسانية كثيرة.

وعلى أية حال، فإن معظم الآراء تتفق على أن مصطلح «العولمة» قد هبَّ على العالم وانتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً إثر انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي[1].

ومع أن كلمة «العولمة» لم تنتشر ولم تصبح كما هي عليه اليوم من الرواج إلا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وعلى وجه الخصوص، منذ أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، فإن مضمونها بوصفها ظاهرة تهدف إلى أمركة العالم، قد تم التعبير عنه بجلاء في منتصف الستينيات على الأقل، عندما تقدم بعض المنظرين في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥م، بمبادرة اشتملت على برنامج عمل يضمن للولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة على العالم[2].

ويربط البعض بين ظهور مصطلح «العولمة» وظهور ما عُرِف بالنظام العالمي الجديد، الذي بدأت بذوره الأولى في منتصف الستينيات من القرن العشرين، ثم بدأت توجهاته تتضح في السبعينيات، وتسارعت خطاه في الثمانينيات، بحيث اتضحت خطوطه العامة وملامحه الرئيسة مع بداية التسعينيات[3].

وتجدر الإشارة إلى صعوبة تحديد الوقت الذي بدأت فيه ظاهرة العولمة تأخذ الصورة التي نراها عليه اليوم. ومع ذلك، يمكننا أن نشير إلى عدد من الأحداث الرئيسة التي شهدها العالم، والتي حملت للبشرية إرهاصات العولمة. ومن بين هذه الأحداث: أول خدمة دولية للتلغراف عبر المحيطات (١٨٦٦م)، وإدخال التنسيق على مستوى العالم

---

(١) حازم الببلاوي، نحن والغرب عصر المواجهة أم التلاقي؟ القاهرة، دار الشروق ص٣٢-٣٣.

(٢) الجابري، العولمة والهوية الثقافية - ط٢ - بيروت ص١٤٤.

(٣) ياسين، السيد (١٩٩٨) في مفهوم العولمة، تحرير أسامة الخولي بيروت ص٢٩.

للساعات وفقاً لتوقيت جرينتش (١٨٨٤م)، وظهور أول نظام للاتصالات الهاتفية بين لندن وباريس (١٨٩١م)، وإنشاء أول نظام لانتقال الأموال عبر الحدود الدولية في لوكسمبورج (١٩٢٩م)، وافتتاح أول مطعم «مَكْدُونالْد» (١٩٥٥م)، وبدء أول اتصالات دولية بالأقمار الصناعية (١٩٦٢م) وإنشاء أول نظام إلكتروني لأسعار صرف الأوراق المالية (١٩٧١م)، وغير ذلك من أحداث مشابهة[1].

ومن استعراض هذه الأحداث يتبين لنا أن «العولمة» في مراحلها الأولى، لا ترادف «الأمركة»، ولا نلمس أنها نشأت أو ظهرت تحت تأثير أمة معينة، أو أنها فُرِضَت وفقاً لمشيئة هذا الزعيم السياسي أو ذاك القائد العسكري، بل ندرك أنها تحققت وتطورت بسبب مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، التي تنتمي إلى تراث البشرية بأكملها. وعلى أية حال، وبعيداً عن التتبع التاريخي لظاهرة العولمة، فإنها قد أصبحت، بخيرها وشرها، واقعاً ملموساً، نعيشه ونحياه، ويصعب - إن لم يكن مستحيلاً - الابتعاد عنه.

● العولمة الثقافية والهوية

العولمة الثقافية هي أصل العولمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، لأن الثقافة هي التي تهيئ الأذهان والنفوس لقبول تلك الأنواع الأخرى، وتجعل الناس مستعدين للانضمام إلى الأنظمة والمؤسسات والاتفاقيات الدولية. وتعدُّ الثقافة عنصراً أساسياً في حياة كل فرد وكل مجتمع وكل أمة، وهي تشمل التقاليد والمعتقدات والقيم

---

(١) عبد البديع أحمد عباس، من العالمية إلى العولمة، دار المعرفة الجامعية - القاهرة - ١٩٩٩م ص٩٤-٩٥.

وأنماط الحياة المختلفة والفنون والآداب وحقوق الإنسان[1]. إنها الهوية المُعَبِّرَة عن الشعور بالانتماء لدى أفراد كيان اجتماعي معين، والتي تُشْعِر أصحابها بخصوصيتهم، ورصيدهم المختزن من الخبرات المعرفية والأنماط السلوكية.

وللعولمة الثقافية وسائلها ومضامينها؛ فوسائلها هي هذه الآلات والأدوات والأجهزة التكنولوجية والإلكترونية، أما مضامينها ومحتواها فهي هذه البرامج الفكرية، والتصورات الأدبية والفنية، والمذاهبُ والنظريات النقدية، والآراء العقائدية (الإيديولوجية)، ووجهات النظر السياسية، ونمط الحياة والتقاليد الاجتماعية في الملبس والمأكل والمشرب، والبرامج التمثيلية والغنائية والموسيقية، وما شابه ذلك[2]. ومن هنا نجد أن العولمة ليست نظاماً اقتصادياً وحسب، بل ترتبط ارتباطاً عضوياً مع وسائل الاتصال الحديثة التي تنشر فكراً معيناً، و«ثقافة» معينة، يمكن أن نطلق عليها اسم «ثقافة الاختراق»[3].

وعلى الرغم من إقرار المجتمعات الإنسانية على مرِّ التاريخ بوجود تمايز ثقافي فيما بينها، فإن ثمة اتجاه سائد الآن تقوده الولايات المتحدة الأمريكية يدعو إلى إنكار هذا التمايز، على اعتبار أن التدفق الإعلامي عبر الحدود، والثورة المعلوماتية من شأنها نشر ثقافة كونية واحدة. وتبرز قضية الهوية الثقافية بمجرد حديثنا عن الانتقال عبر الحدود وخاصة في مجال المعلومات والأفكار والاتجاهات والأنماط السلوكية.

---

(١) الجابري - مرجع سابق ص٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) ناصر الدين الأسد، آثار العولمة على البلدان المتنامية في المجالين الثقافي والتواصلي (٢٠٠٢) ص١١١ - ١١٤. دار التراث العالمي - القاهرة.

(٣) الجابري - مرجع سابق ص١٤٣.

لقد لعبت ثورة الاتصالات دوراً أساسياً في إحداث هذا التأثير الثقافي؛ فبدلاً من الحدود الثقافية، الوطنية والقومية، تطرح إيديولوجيا العولمة «حدوداً» أخرى، غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية، كالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) والقنوات الفضائية، بغرض الهيمنة على الأذواق والفكر والسلوك. وقد أدى استخدام القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، إلى تقلص دور الكلمة المكتوبة لحساب الصورة المرئية، ولهذا الأمر أهميته البالغة، لأن الكتاب مثلاً كان يخاطب النخبة في حين يتسع جمهور الصورة ليشمل مختلف شرائح المجتمع، ولأن الكتاب كان يتوقف أحياناً عند حدود الدول، وقد لا يسمح له بالدخول إليها، في حين تتخطى الصورة التي يحملها الأثير جميع الحدود السياسية والحواجز الجمركية[1]. وما يُقال عن الكتاب، يُقال أيضاً عن الصحف والمجلات وغيرها من المواد المكتوبة.

إن أكثر ما يلفت الانتباه من ظواهر العولمة في المجال الثقافي، هو المدى الذي بلغته الثقافة الشعبية الأمريكية من الانتشار والسيطرة على أذواق الناس في العالم. فقد أصبحت الموسيقى والبرامج التليفزيونية والمسلسلات والأفلام السينمائية الأمريكية، منتشرة في أرجاء العالم، كما أن النمط الأمريكي في اللباس والأطعمة السريعة والمشروبات وغيرها من السلع الاستهلاكية انتشرت على نطاق عالمي واسع. وفضلاً عن ذلك، صارت اللغة الإنجليزية لغة عالمية، بل وانتشرت اللهجة الأمريكية، على وجه الخصوص، انتشاراً واسعاً.

ومن أسباب هذا النفوذ الثقافي الواسع:

---

(١) فتحية محمد أحمد إبراهيم، أزمة الهوية الثقافية في عصر العولمة، دار النشر العلمي بالرياض، ٢٠٠١م، ص١٢٢.

سيطرة الاقتصاد الأمريكي بوصفه سوقاً مستوردة ومصدرة، وهيمنة شركات الإعلان الأمريكية على التسويق العالمي، ولِما للولايات المتحدة من تفوق واضح على منافسيها الاقتصاديين في المجالات الثقافية الشعبية، وعلى الأخص في صناعتي السينما والموسيقى[1].

ويبدو أن الولايات المتحدة تعتمد في نشر نمطها الثقافي على تفوقها التقني وهيمنتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، معرضة مقومات الهوية الثقافية للمجتمعات الأخرى إلى خطر الذوبان، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أن الثقافة الكونية المُعَوْلَمَة ليست إلا نتاجاً لثقافة مُهَيْمِنَةٍ هي ثقافة الغرب وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية وليست نتاجاً لتفاعل الثقافات الأخرى وتضافرها وتناظرها.

وتجدر الإشارة إلى أن عملية الأخذ والاقتباس من «الآخر» لا يمكن أن تفرز لنا كياناً متطابقاً تمام التطابق مع هذا «الآخر».

فعلى الرغم من هذا الاحتكاك الذي يحدث بين المجتمعات الأوروبية، نجد أن طبيعة المجتمع البريطاني مثلاً تختلف عن الفرنسي، وكلاهما يختلفان عن الإيطالي، سواء في النظام السياسي أو الاقتصادي أو السلوك الاجتماعي أو في الفكر والثقافة.

ويظهر هذا الاختلاف بوضوح أكبر عندما نقارن بين الولايات المتحدة واليابان، فرغم اعتناقهما لنفس النظام الاقتصادي والسياسي، ومع غلبة مظاهر المجتمع الصناعي الحديث في كل منهما، فإن شكل الحياة وقيم المجتمع في اليابان ليست متطابقة مع تلك السائدة في الولايات المتحدة[2].

---

(١) بول سالم - الولايات المتحدة والعولمة. تحرير أسامة الخولي، بيروت ٢٠٠٤م، ص٢٢٠.

(٢) البيلاوي - مرجع سابق ص٤٥ - ٤٦.

ويرى البعض أنه لا يوجد دليل على أن العولمة بالضرورة تهدف إلى محو الهويات الثقافية المتعددة، ذلك لأن العولمة ليست بحاجة إلى فرض نظام ثقافي موحد على مستوى العالم، وأنه من المستحيل محو التعدد الثقافي في العالم مهما خطَّط المُخَطِّطون[1].

إن الاحتكاك بين الحضارات، والأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر، لا يؤدي على الإطلاق إلى ذوبان هذه الحضارات في حضارة واحدة، حتى ولو على المدى البعيد. ونحن لا نعتقد في إمكانية وجود ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام مثل هذه الثقافة. و يعرف عالمنا اليوم، كما عرف طوال التاريخ، ثقافات متعددة متنوعة، لكل منها خصائصها، ويحرص أصحابها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة.

والذين يرفضون العولمة ويرون فيها خطراً على الأفراد وعلى الأمة، إنما ينظرون إلى أنها تمثل ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد، ولذلك أطلقوا عليها اسم «الأمركة». وقد رفضت أوروبا هذه الأمركة، ولذلك نجدها تحصن نفسها بالاتحاد الأوروبي حتى تتمكن من منافسة الولايات المتحدة، ومع ذلك، خشيت بعض دولها على ثقافتها وعلى لغتها من أن تطغى عليها هذه الثقافة الوافدة. وكان من هذه الدول، فرنسا واليونان اللتان هاجمتا الولايات المتحدة هجوماً عنيفاً في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي نظمته اليونسكو في المكسيك سنة ١٩٨٢م، حتى إن فرنسا امتنعت عن التوقيع على القسم الخاص بالسلع والمواد الثقافية من اتفاقية «الجات»[2].

إن الخوف من «الغزو الثقافي الأمريكي» لم يقتصر على دول العالم الثالث التي

---

(١) ياسين - مرجع سابق ص١٠٩.

(٢) ناصر الدين الأسد - مرجع سابق ص١١٥.

توصف بأنها بلاد «نامية» أو «متنامية»، بل وجدناه يسيطر على دول كاليونان وفرنسا وبعض الدول الأوروبية الأخرى.

وإذا كان هذا هو موقف هذه الدول من العولمة، وهي دول تنتمي إلى نفس الحضارة التي تنتمي إليها الولايات المتحدة الأمريكية، فكيف تكون الحال مع شعوب العالم الثالث التي تختلف عن هذه الدول الغربية في الجوهر والكيان، وقد تصل ثقافاتها معها إلى حد التناقض؟

ومن اللافت للنظر أن دول الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، التي تنادي بالديمقراطية والتعددية، والرأي الآخر، وحرية العقيدة والتعبير، تصادر في نفس الوقت كلَّ ذلك وتلغيه حين تحاول أن تفرض على غيرها نمطاً واحداً من ثقافة واحدة، هي ثقافتها التي ترى أنها الوحيدة الصالحة للعالم، وبذلك تدمّر الخصوصيات الثقافية للشعوب الأخرى وتفرض عليها ما يخالف عقيدتها ويسلبها هويتها.

ففي وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مثلاً، نجد الكثير من البنود التي تصادر الرأي الآخر، وفيها إهدار لحقِّ الشعوب في أن تعيش وفق ثقافتها وعقيدتها، مما جعل البعض يرى فيها تعميماً لفكر غربي، وفرضاً للثقافة الغربية.

ومن هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق والاتفاقيات والمعاهدات ندرك أن الديمقراطية الغربية تتناقض مع نفسها أحياناً، وتتنكّر لدعوتها، حين لا تسمح بالتعددية والرأي الآخر وحرية العقيدة، وعندما تفرض وجهة نظر واحدة من ثقافة واحدة[1].

---

(١) ناصر الدين الأسد - مرجع سابق - ص١١٦-١١٧.

الهوية العربية الإسلامية

تركز بعض الكتابات العربية التي تعرضت للعولمة على المخاوف المتوقعة من غزو العولمة الثقافية وتهديد موجاتها المتدفقة للهوية العربية الإسلامية أو الهوية الثقافية القومية. وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الهوية الثقافية القومية الذي يعنينا هنا، والذي يُقصد به الهوية المشتركة لجميع أبناء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، لا يعني قط إلغاء ولا إقصاء الهويات الوطنية القطرية ولا الهويات المحلية والطائفية. إنه لا يعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط الثقافية الأخرى، المتعددة والمتعايشة، عبر تاريخنا المديد داخل الوطن العربي الكبير.

وتعدُّ اللغة من أهم العناصر التي تُشَكِّل هوية أية جماعة وأي وطن، وهي التي تطبع هذه الهوية بطابعها الثقافي المميز. واللغة العربية هي اللغة المشتركة التي يتحدث بها جميع أبناء الأمة العربية، وهي لغة التراث المشترك، ولغة العلم والثقافة، وبالتالي لغة التحديث والحداثة. إنها الرابطة المتينة التي توحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي، وهي الأداة التي بها يمكن للعرب الدخول في العالمية وتحقيق الحداثة. ويمكن للغة العربية – إذا أردنا– أن تكون جسراً تعبر عليه ثقافات الشرق والغرب، فينتقل إلينا بواسطتها ما وصل إليه الآخرون من تقدم علمي وتكنولوجي، ويكون دَوْرُنا الأهم في تفعيل حركة النقل والترجمة هو دقة الاختيار والتركيز على ما يفيد خططنا.

لقد أنفقت اليابان عشرات المليارات على حركة الترجمة لتضع شعبها ومؤسساتها الأكاديمية على قدم المساواة معرفياً مع العالم الذي كانت تقوم عليه العولمة المعاصرة. فهل يمكننا أن نفعل شيئاً شبيهاً بما فعلته اليابان في هذا المجال؟.

من جهة أخرى، فإن الثقافة العربية بمختلف مستوياتها المادية والروحية تتميز بنوع من الثنائية، التي طبعتها منذ ما يقرب من قرنين، نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية،

وهي ثنائية التقليدي والعصري التي كرست الازدواجية والانشطار داخل الهوية الثقافية العربية[1]. وليست العولمة وحدها هي المسؤولة عن نشر ثقافة دون أخرى في عالمنا العربي، وليست هي التي تقود معركة الغزو الثقافي، وذلك لأن جميع تكنولوجيات الاتصال في بيوتنا مفتوحة على عدد من محطات الإذاعة والقنوات الفضائية العالمية، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وغيرها، ولم نعمل شيئاً في سبيل وقفها. وهذا يعني أن ما يسمى بالغزو الثقافي للعولمة لا يتضمن أي نوع من الاقتحام القسري بواسطة قوة خارجية تقوم بانتهاك خصوصيتنا أو الاعتداء عليها. وليس بالضرورة أن كلَّ ما يهجم على هويتنا العربية والإسلامية قادمٌ إلينا من الخارج، فإن الذين يتابعون منّا القنوات الفضائية الأجنبية، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، والمجلات والجرائد والكتب الأجنبية الخليعة، لا يزالون قلَّة. ولكن الوسائل التي اخترقت كياننا وثقافتنا ووصلت إلى أبنائنا وبناتنا، صغاراً وكباراً، في بيوتنا ومؤسساتنا، هي من صنع أنفسنا. وتتمثل هذه الوسائل في بعض الإذاعات والقنوات الأرضية والفضائية العربية وعدد غير قليل من الصحف والمجلات التي تفاجئنا وتفجعنا بتقديم أكثر البرامج والكتابات والصور تهتّكاً وبُعداً عن قِيَمنا الإسلامية وثقافتنا العربية[2].

ومع ذلك فإنه يتعين علينا أن نوجِد لدى جماهيرنا الوعي بأن يختاروا من بين الصور والرسائل الإعلامية المختلفة ما يتفق مع قيمنا الدينية ومثلنا الأخلاقية ومعتقداتنا الاجتماعية وتوجهاتنا السياسية، وبمعنى أعم وأشمل، ما يتفق مع ثقافتنا القومية دون أن نُغالي في الحديث عن مساوئ العولمة وآثارها الضارة المدمرة. وعلينا أن نوجِد آلية

---

(١) الجابري - مرجع سابق ص٣٠٤.

(٢) انظر: ناصر الدين الأسد - مرجع سابق ص١١٩-١٢٠.

نتعامل من خلالها مع الجوانب السلبية للعولمة بالشكل الذي يحفظ للأمة العربية هويتها ويضمن لها مكانتها بين الأمم ويساعد على تحقيق آمالها، ويؤكد الحفاظ على حقوقها الكاملة في السيادة والتقدم والتعاون العادل المثمر بين الشعوب.

إن الأمة العربية والإسلامية لديها مقومات النهوض الثقافي والفكري، لكنها تحتاج إلى إرادة قوية تكون قادرة على تفعيل هذه المقومات، ويمكنها وضع الآليات التي تستطيع من خلالها تنفيذ استراتيجيتها حتى نحتل موقعاً يرضينا على الساحة العالمية.

وإذا سَلَّمْنا بأن العولمة هي واقع قائم لا مفرّ منه، بسبب ما يشهده العالم من تغيرات متلاحقة وسريعة في مجال الاتصال والتكنولوجيا، فإن الخيار الذي نأخذ به هو التعامل مع معطيات العولمة بصورة جدية وواقعية، وأن نحاول أن نأخذ موقعاً ملائماً في هذا العالم، دون أدنى تفريط في هويتنا وثوابتنا. ويجب أن نطرح جانباً- في هذه القضية - فكرة المؤامرة وأن الغرب يتآمر علينا، ويجب أن نعي أن لكل إنسان مصالحه الخاصة، فكما أن لدينا مصالحنا، فإن لدى الآخرين مصالحهم في شتى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية وغيرها، وهم يعملون جاهدين على تحقيقها. ولا نستطيع أن نوقف الآخرين عن تحقيق مصالحهم، ولكن ما نستطيع أن نفعله هو التصميم على مواكبة العصر، والأخذ بما تصل إليه أيدينا من تقدم علمي وتكنولوجي.

ويرى الإسلاميون أن العولمة بمعنى التسليم للهيمنة الغربية، وفرض التبعية للغرب، والسير تحت لوائه، هو أمر مرفوض تماماً[1]. وهم يعتقدون أن العولمة بالمفاهيم الغربية، هي ضد الدين الإسلامي الذي يفضحها ولا يقبلها في أي أساس من أسسها، وهم يرون

---

(١) كمال الدين عبد الغني المرسي، العالمية والعولمة والأزهر، الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٩م، ص١٧٨-١٨٢.

في هذه القضية نوعاً من التحدي: «فإما نكون أو لا نكون». ويرى أصحاب هذه النظرة أن الأمة إذا قبلت أسس العولمة الغربية تكون قد فرطت في دينها، وإذا تمسكت بدينها فلا يجب أن تقبل شيئاً من هذه العولمة، لما تجلبه من سلبيات وأخطار.

وإذا كان الأمر كذلك، فما العمل إزاء سلبيات العولمة وأخطارها التي يرى فيها البعض تهديداً للهوية الثقافية العربية والإسلامية؟.

يرى البعض أن التعامل مع الغرب لا يمكن أن يتم بالاختيار والانتقاء، فإما أن نأخذ عن الغرب كل شيء، فنصبح غربيين أو أشبه بالغربيين، أو أن ندير ظهرنا كلية للغرب حماية لأصالتنا ونقائنا[1].

ومن الطبيعي أن تتفاوت وجهات النظر تجاه المواقف التي ينبغي تبنيها فيما يتعلق بالتعامل مع الغرب أو بالانفتاح على الآخر، وما ينجم عن ذلك من تأثيرات أجنبية تهدد هويتنا الثقافية.

* وهناك موقفان سائدان، هما:

- أولاً: موقف الرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي الذي يُوَجَّه إلى الذات.

- ثانياً: موقف القبول التام للعولمة وما تمارسه من اختراق ثقافي، أي الارتماء في أحضان العولمة والاندماج فيها.

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نقلل، ولا نهوِّن من الخطورة التي يمكن أن تلحقها العولمة الثقافية بهويتنا بوجه خاص، وبالتنوع الثقافي بوجه عام، ولكننا في نفس الوقت، لا نميل إلى المبالغة في ذلك. وحتى لا نُصاب بالجمود، فنتخلف عن مواكبة هذا التطور العلمي المتسارع من حولنا، يجب أن نتقبل الجديد، ونسعى إليه، مع المحافظة على هويتنا

---

(١) انظر البلاوي - مرجع سابق ص٤٥-٤٦.

الثقافية بعيداً عن التعصب والانغلاق. وإذا كانت ثقافتنا العربية تعاني اليوم من الثنائية والانشطار، ومن الاختراق الثقافي بفعل العولمة، فإن ما يجب أن نفعله هو الانطلاق من الداخل، أي من داخل ثقافتنا العربية نفسها، ذلك لأنه من المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية.

ونود أن نشير إلى أن العولمة الثقافية ليست دائماً عدواناً مقصوداً مخططاً له، يُوَجَّه إلينا لاستلابنا حضارياً وثقافياً. ويجب ألا نتعامل مع العولمة الثقافية من موقف التوجس والرفض والعدوانية دائماً، لأننا بذلك نكون قد شجعنا التقوقع والتراجع إلى الذات دون أن نستفيد من التفاعل الحضاري الضروري لتطور الثقافات وتطور الحضارات. ولا بد أن نعي ونعترف أن في أوربا وأمريكا علماء ومفكرون اجتماعيون وسياسيون واقتصاديون، لهم مكانتهم وأثرهم في الفكر الإنساني وفي تطوير العلم والمعرفة، ولهم نتاج جدير بأن نطّلع عليه ونستفيد منه إذا أردنا لأنفسنا ولأمتنا أن نسير في ركب التقدم وأن نشارك في موكب الحضارة والعلم. وليست الحياة في الغرب على النحو الذي تنقله لنا القنوات الأرضية والفضائية من مظاهر العُرْي الفاضح، والتهتّك، وإنما فيها أيضاً من التستّر والاحتشام والتدين والعمل الجاد والسعي الدائب، بالقدر الذي أوصلهم إلى ما هم فيه الآن. ولذلك، يجب علينا أن نُوجِد الآلية التي نختار بها ما لا يتعارض مع عقيدتنا وهويتنا، وأن نُكَوِّن الفكر الذي نستطيع به التعامل مع الفكر الآخر، الفكر الناقد الذي يستطيع أن يختار ما يناسبه ويطرح بعيداً ما لا يناسبه.

إن حاجتنا إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الثقافي والإعلامي الكاسح، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الوسائل والأدوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين، ولكننا

في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع.

إن نجاح أي بلد من البلدان في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، يتوقف إلى حد بعيد على عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، وانخراطه الواعي، في عصر العلم والتقانة. وهذا لا يتحقق إلا بالاستغلال الأمثل للإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها، وفي مقدمتها العلم والتقانة. وهذا ما نلمسه بوضوح في مخططات الدول الأوروبية التي تعتقد أن خطر «الغزو الثقافي الأمريكي» يهدد هويتها، ويؤثر في لغتها وسلوك أبنائها وتصوراتهم.

فإذا كان هذا هو شأن الدول الأوروبية واليابان وغيرها من الدول الأكثر منا تقدماً في أخذها بما تقدمه العولمة من إيجابيات، فإنه كان من الأولى على الدول التي توصف بأنها «نامية» أو «متنامية»، والتي ننتمي نحن إليها، أن تدرس وتخطط للاستفادة بما تقدمه العولمة من عِلْمٍ وتقانة، بسرعة ودون إبطاء. فهل من المعقول أن نرفض مكتسبات العلم الحديث في الغرب والشرق اكتفاء بنظريات علماء العرب والمسلمين القدامى؟ وهل من المعقول أن نتجاهل ما يحدث من تقدم في الطب والعلوم لأنه نتاج الجامعات الأمريكية والأوروبية؟. إننا نعتقد أن التخوف من زوال الهوية نتيجة لالتقاء الحضارات، والأخذ من بعضها البعض، هو تخوف في غير موضعه، بل وكثيراً ما كان هذا التلاقي والأخذ والعطاء، مناسبة لتأكيد الهوية، وإبراز الأصالة، وليس تهديداً لها.

البعد العالمي في الخطاب القرآني

من أبعاد القرآن وأهدافه التي أنزل لتحقيقها، صلاح العالم بجميع مكوّناته، وفي مقدّمها الإنسان، ومن ثم جاء الخطاب القرآني مصبوغاً في أسلوبه وتشريعاته بما يحقّق ذلك البعد الأعظم. وقد جاءت الرّسالات السّماوية السّابقة خاصة لأقوام ومجتمعات إقليمية، محدودة الزمان والمكان والتشريع، إلى أن جاءت الرسالة المحمدية، فأرادها الله أن تكون خاتمة الشّرائع ومهيمنة عليها فاستوعبت بذلك الزمان والمكان والإنسان، بما تضمّنته من بعد عالمي لشؤون البشرية وقضاياها في جميع المجالات المعرفية والعمرانية. وقد تجسّد ذلك البعد ميدانياً وواقعياً طوال القرون الماضية التي انتشر فيها الإسلام وعمّ ربوع الأرض شرقاً وغرباً، ولم يعجز بثرائه التّشريعي عن استيعاب قضايا الشّعوب، بل وجدت فيه الرّحمة والعدل والإنصاف والحرّية فعاشت في ظله مكرّمة عزيزة. وإنّ الغياب العالمي لحكم الإسلام وشريعته بسبب ضعف أهله والقائمين عليه، لا يعني أفول شمسه ونوره، ونهاية سلطانه، بل سيعود لربوع الأرض وستنعم شعوب العالم وقارّاته مرّة أخرى بهداه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

إنّ الظهور لهذا الدّين آت لا محالة حسب الوعد الإلهي، وهو الذي يتلاءم مع البعد العالمي الذي دلّت عليه نصوصه وتشريعاته في القرآن الكريم.

إنّ هذه الدراسة تكشف جانباً من تلك الحقيقة في هذا الوقت الذي تكالبت فيه القوى المعادية على المسلمين التي تحاول فرض نظامها العالمي عليهم، جاهلة أو متجاهلة أن هذه العولمة غريبة في أهدافها ومقاصدها عن قيم الشّعوب ومبادئها وثقافاتها، إذ تهدف إلى طمس خصوصياتها وهوياتها، وهذا ما يتنافى مع رسالة القرآن العالمية التي جاءت

لتحافظ على قيم الشعوب الدينية والثقافية التي لا تتعارض مع أصوله ومبادئه. ومن ثم فإن عالمية القرآن السّمحة هي البديل لما تعانيه الشّعوب من قهر واستبداد. وفيما يلي إبراز أهم مظاهر ذلك البعد العالمي في الخطاب القرآني.

● **أولاً: عالمية الكتاب.**

مما يدلّ على البعد العالمي في الخطاب القرآني، أن الله تعالى ختم الكتب السابقة بكتاب عام لجميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأن هذا الكتاب -القرآن- مهيمن على ما ورثته البشرية من التعاليم السّماوية الماضية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، أي: ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم وطاعة الله ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه[1].

وقد وصف الله القرآن بعدّة أوصاف تدلّ على بعده العالمي في الهداية والإصلاح، وأنه أفضل الكتب صلاحاً وإصلاحاً، وأكملها لكل الأمم ولجميع الأزمنة، كوصفه بالكريم في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، فالآية فيها إشارة إلى تفضيل القرآن على أفراد نوعه من الكتب الإلهية، مثل:التوراة، والإنجيل، والزبور، وفضله عليها بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين وأحوال المعاش والمعاد وإثبات المعتقدات

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس ط ١٩٨٤م، (٣٠)/ (١٦٥).

بدلائـل التكوين والإبلاغ في دحض الباطل دحضاً لم يشتمل على مثله كتاب سابق، وبخاصة الاعتقاد، وفي وضـوح معانيه وفي كثرة دلالته مع قلة ألفاظه، وفي فصاحته، وفي حسن آياته، وحسن مواقعها في السّمع، وذلك من آثار ما أراد الله مـن عموم الهداية والصّلاحية لكلّ أمة، ولكلّ زمان[1].

وكوصفه بالعلوّ والحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤]، وذلك لما حواه من الحكمة، ولما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة[2].

وكوصفه بالمجيد، في قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق:١]، فالقسم بالقرآن كناية عن التّنويه بشأنه؛ لأن القَسَم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم، فكان التعظيم من لوازم المقسم، ووصف القرآن بالمجيد؛ لكونه مشتملاً على أعلى المعاني النافعة لصـلاح الناس[3].

وكوصفه بالهيمنة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]، أي: شاهداً وقيّماً على الكتب السّابقة عليه، وذلك لما فيه من صلاح للبشر في العاجل والآجل[4].

يقول (سيّد قطب): لقد جاء هذا الكتاب لينشىء أمة وينظم مجتمعاً، ثم لينشىء عالماً ويقيم نظاماً، جاء دعوة عالميـة إنسانية لا تعصّب فيها لقبيلة أو أمّة أو جنس[5].

---

(١) ابن عاشور: المرجع نفسه:٧٢/ ٣٣٣.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: ٥٢/ ٢٦١.

(٣) ابن عاشور: المرجع نفسه: ٦٢/ ٦٧٢.

(٤) ابن عاشور: مقاصد الشريعة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص: ٣١.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة، مصر ط٧ ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م، المجلد الثالث، ٤١)/ ٤٥٢.

ويقول: إنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمّة تقود هذا المجتمع العالمي، وأنه الرّسالة الأخيرة التي ليس بعدها من السّماء رسالة[1].

وذلك لأنّ القرآن الكريم وحده بحكم كونه نصّاً إلهياً مطلقاً، هو القادر على استيعاب وتصويب مختلف مناهج العلوم النقلية والعقلية والطبيعية والاجتماعية والإنسانية وغيرها وتقويمها كذلك، وهو وحده بحكم عالمية رسالته القادر على استيعاب مختلف الأنساق الحضارية وتصويبها وتقويمها وترقيتها[2].

● **ثانياً: عالمية الرسالة.**

ومن الدلائل على البعد العالمي في الخطاب القرآني، إخباره بأن الرسالة المحمدية جاءت للعالمين، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فالآية ترسم الغاية من تنزيل القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو كونه رسولا للعالمين، فالرسالة تدل على ثبوت تلك العالمية منذ مطلع البعثة النبوية، بما تحمل من طابع عالمي ووسائل إنسانية كاملة ذات بعد عالمي[3]، ويقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالآية تثبت باللفظ الصريح عالمية الرسالة النبوية، ومعنى ذلك أنها لا تختص بقوم، ولا أرض، ولاجيل، بل هي للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، بما تضمّنته من قوانين تتناسب وتطوّر

---

(١) سيد قطب: المرجع نفسه، المجلد الثالث: ٤١/ ٨٤٥٢.

(٢) طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، أمريكا ط١ ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ص: ٣١.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس: ٩١/ ٨٤٥٢.

البشرية الأخير، وكمال أصولها العقدية، وقابليتها للتطبيق المتجدّد في فروعها العملية، وكذا ملاءمتها للفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً[1]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالتعريف في قوله -للعالمين- يفيد الاستغراق، فهو شامل لكلّ ما يصدق عليه اسم العالم، وتفيد صيغة الخطاب أن الرحمة منحصرة في الرسالة الخاتمة، ومعنى ذلك أنها أوسع الشّرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع التي سبقتها، وإن كانت تتّصف بالرحمة، إلا أنها لم تكن رحمة عامة، إمّا لكونها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، كشريعة إبراهيم -عليه السلام- كانت رحمة خاصة بحال الشّخص في نفسه، وليس فيها تشريع عام، وقريب منها شريعة عيسى -عليه السلام-، وإما لأنها تشتمل على أنواع من المشقّة في أحكامها اقتضتها حكمة الله تعالى في سياسة الأمم[2].

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: (إنها رسالة لكلّ الأزمنة والأجيال ليست رسالة موقوتة بعصر أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما هو الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد -صلى الله عليه وسلم- وهي كذلك غير محدودة بمكان، ولا بأمّة، ولا بشعب، ولا بطبقة، إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات)[3].

● **ثالثاً: عالمية الخطاب.**

ومما يدل على البعد العالمي للخطاب القرآني، تميّز خطابه بالعالمية، حيث صيغ

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثالث: ٩/ ٩٧٣١.

(٢) ابن عاشور: التحرير: ٧١/ ٧٦١.

(٣) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة في الإسلام، دار الشهاب- باتنة، الجزائر-ص:٥٩، ٧٩

صياغة العموم والشمول المستوعب للإنسان والمتتبع للخطاب القرآني يجده مرّة يخاطب الإنسان، ومرّة يخاطب الناس، ومرّة يخاطب المؤمنين: فخطابه لعموم الإنسان، كقوله في معرض الوصية بالوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وكقوله في معرض بيان مسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فالوصية والمسؤولية تخاطب عموم البشر في هذا الكون أينما وجدوا، فكل إنسان مطالب بالإحسان إلى الوالدين، وكذلك كل إنسان مسؤول عن نتائج أعماله من خير أو شر وخطابه لعموم الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وأوطانهم، كالأمر بعبادة الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وكالأمر بالأكل من الحلال الطيب، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[البقرة: ١٦٨]، وكالأمر بالتقوى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١].

فهذه النصوص تخاطب الناس عامة، فهم مأمورون بعبادة خالقهم الذي خلقهم، ومأمورون بالأكل مما رزقهم من الحلال الطيب ومأمورون بالخوف منه وتقواه وأما خطابه للمؤمنين، فهو عام أيضاً لكل من تحقّق فيه وصف الإيمان، في أي مكان وزمان من العالم، كخطابهم بفرض القصاص في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وخطابهم بفرض الصيام عليهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكخطابهم بالدخول في السّلم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[البقرة: ٢٠٨]، وكخطابهم بترك الرّبا، ونهيهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وأمرهم بالوفاء بالعقود، في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:١]، فهذه النصوص وغيرها كثير في القرآن مما ورد بهذه الصّيغة والأسلوب الخطابي العالمي الذي يشمل الإنسان بعامة والناس والمؤمنين في أيّ زمان ومكان من العالم عامة والناظر في الخطاب القرآني يجده متنوّع الدلالة والغاية، كالخطاب الدعوي، والتّرغيبي، والتّرهيبي، والبرهاني، والعلمي والتّاريخي والتّشريعي، وكلها تخاطب الناس بعامة مطلقة من قيد الزمان والمكان ويلاحظ أن الخطاب الدّيني الإلهي مرّ بدورين:

دور الخطاب الاصطفائي الحصري:

وهو خطاب يتوجّه في مضمونه إلى دوائر بشرية معينة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فالآية تشير إلى الخطاب الاصطفائي الحصري الذي يبتدىء بآدم، ثم بقوم نوح، ثم بخلائف قوم نوح، ثم بإبراهيم، وإلى يعقوب والأسباط ثم آل عمران من ذرية إبراهيم، وإلى يحيى بن زكريا ثم تحوّل الخطاب إلى ذرية إسماعيل بن إبراهيم انتهاء بمحمد خاتم النبيين عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام فكل الرسل والرسالات المذكورة في القرآن إنما جاءت بخطاب إلهي حصري اصطفائي ينتهي ببعثة خاتم الأنبياء.

دور الخطاب العالمي:

ويبدأ ببعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام السّاعة، ومن ثم فإن ختام النّبوة ليس مجرد توقيت زماني فحسب، بل ختامه يقترن بحدث كبير، وهو انتهاء الخطاب

الإلهي الحصري الاصطفائي لينطلق الخطاب العالمي من الأرض المحرّمة وليس من الأرض المقدَّسة، ويبدأ بالتخصيص العربي نهاية للاصطفاء وافتتاحاً للعالمية في الوقت ذاته[1].

وفي هذا الشأن يقول الغزالي: فخطاب القرآن عالمي، ورسالته خاتمة، وله بعد في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله[2]، ومن هنا صيغ التّشريع صياغة عامّة تستوعب قضايا الإنسان وحاجاته المتجدّدة الحاضرة منها والمستقبلية وجاءت معظم النصوص عامة في اللفظ والمعنى، حتى اشتهرت تلك القاعدة الأصولية: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[3].

ومفاده: أن سبب النزول لا تقيّد معاني النصوص ودلالاتها بمن نزل فيهم، بل تتعدّى لتشمل غيرهم ممن لم ينزل فيهم الخطاب كما جاءت نصوص القرآن في معظمها ظنّية الدلالة تحتمل أكثر من معنى، ليتّسع تفسيرها بما يتلاءم والمقصد من عالمية الخطاب، فلا تعترضها الظواهر الجغرافية، ولا الأحداث التاريخية، ولا التطوّر الحضاري للبشرية، وهذا ما يشهد له الفقه الإسلامي، فإنه ذو نزعة عالمية -وإن

---

(١) أبو القاسم حاج أحمد: المنهجية المعرفية في القرآن العظيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، أميركا ط ١٤١١هـ ١٩٩١م، ص: ٩٢، ٠٣، ١٣، ٢٣

(٢) محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار النهضة، القاهرة ١٩٨٤م ص ٢٨٣.

(٣) محمد صديق خان: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، دار الرائد العربي بيروت، لبنان ط ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص: ٦٢، ٨٤، محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني= = الرواية والدراية من علمي التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ط٢ ١٣٨٣هـ١٩٦٣ م، (١/ ١٦١)، (٢/ ٦٥١)، (٣/ ٩١).

كتب بلغة العرب وفي أرضهم- إلا أن مضامينه عالمية؛ لكون المصدر الأول لهذا الفقه عالمي النزعة، ألا وهو القرآن، وقد حكم هذا الفقه شعوبا شتى في بقاع الأرض، فلم يعجز عن الوفاء بحاجاتها[1]، فالخطاب القرآني بعالميته استطاع استيعاب الحضارات القديمة، بما تحويه من ثقافات متنوّعة وأديان متعدّدة وأعراف مختلفة، ولم يكن ذلك مانعاً ولا حائلاً أمام تلك الشعوب من الاندماج مع المسلمين والتعايش معهم مع الحفاظ على خصوصياتهم الدينية والثقافية وما زال الخطاب القرآني إلى اليوم قادراً على إعادة ذلك الدور المفقود؛ لأن الله الذي كتب له العالمية حفظه من التّبديل والتّحريف الذي أصاب الكتب السّابقة، وإذا كان أقصى ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة هو إقرار التعدّد، فإن عالمية الخطاب الإسلامي عملت وتعمل على استيعاب التعدّد بعد الإقرار به، ودفعه باتجاه -العالمية- ليتحوّل إلى عامل دفع في إطار تنوّع بشري إيجابي تهيمن عليه أنوار الهدى ودين الحق.[2]

● **رابعاً: عالمية المقصد والغاية:**

وإذا كان الخطاب القرآني جاء عالمياً في لفظه ودلالته، فإنه أيضاً جاء عالمياً في مقصده وغايته، حيث جاءت نصوصه دالة على أن العالم كان ولا يزال محلّ العناية الإلهية، والرّعاية الربّانية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فالصّلاح العالمي ضرورة حتمية ونتيجة لازمة من خلق الكون والإنسان والحياة؛ ذلك أن الهدف الأسمى من خلق

---

(١) القرضاوي: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، مكتبة وهبة القاهرة، مصر ط٢ ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م، ص:٢١، ٣١.

(٢) طه جابر العلواني: المرجع السابق: ص:٧٥.

العالم بجميع مكوّناته، إيجاده على هيئة صالحة وأوضاع سليمة، تمكّن الإنسان من عمارته وإقامة حضارته والتّمكين فيه وقد دلّت على ذلك شواهد كثيرة، كقوله تعالى في أوّل سورة في المصحف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، ومعنى ربوبيته للعالمين أن: الله سبحانه لم يخلق الكون هملاً إنما يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربّيه، وكلّ العوالم والخلائق تحفظ وتتعهّد برعاية الله رب العالمين[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠]، دليل على عناية الله تعالى بالعالم الأرضي، ولذا جعل فيه خليفة يخلفه سبحانه وتعالى في تدبير شؤون الكون، فدلّ ذلك على أن مراد الله صلاح هذا العالم واستقامة أحواله كما دل استفهام الملائكة المشوب بالتعجّب أنهم علموا أنّ مراد الله تعالى من خلق الأرض وإيجادها هو صلاحها وانتظام أحوالها، ولذلك تعجّبوا من خلق من يقيم فيها الفساد، فكان جواب الله تعالى أنه أعلم بما في خليفته من صفات الصّلاح والفساد، وأن الصّلاح غالب على الفساد فيه، ومن ثم يتحقّق المقصد من الخلق وهو عمارة الأرض وصلاحها[2] كما دلّت نصوص كثيرة على أن مراد الله من خلق العالم صلاحه، كقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٨٥]، فهي دليل على أن الله لا يحب الفساد في الأرض بعد أن أصلح الله خلقها، وكقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ففيها إشارة صريحة إلى أن الله

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول:١/ ٢٢.

(٢) ابن عاشور: التحرير، (١/ ٣٠٤ أصول النظام الاجتماعي، الدار العربية للكتاب تونس ط/ ١٩٧٩م، ص: ٤١، ٤٢.

قصد من خلق العالم صلاح حرثه ونسله وكل موجوداته؛ لينتفع بها الإنسان وينعم بها أهل الأرض جميعاً[1] وهكذا يظهر أن المقصد الأعلى والأسمى من خلق العالم وإيجاده هو عمارة الأرض بالخير والصلاح وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وأنّ ذلك مرهون باستقامة الإنسان وعدله وصلاح عقله[2].

● **خامساً: عالمية الظُّهور والتَّمكين:**

ومما يدل على البعد العالمي في الخطاب القرآني، النصوص المبشِّرة بظهور هذا الدّين والتّمكين لأهله في العالم، وأن ذلك آت لا محالة حينما يأذن الله وتتهيأ أسبابه، وظهور الدّين، معناه: علوّه على جميع الأديان السّابقة والتمكين له في الأرض[3]، وقد نصّ عليه القرآن في ثلاث آيات، في سورة التوبة، والفتح، والصّفّ، وقد ربط الله تعالى هذا الظهور والتّمكين عقب الإشارة إلى رفض أهل الكتاب والمشركين الاعتراف بالدّين العالمي الجديد والدّخول فيه.

ففي سورة التوبة حدّد الله صفة المشركين في الآية (٢٨): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

---

(١) ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي، ص: ٢٤.

(٢) علال الفاسي: مقاصد الشريعة ومكارمها، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، المغرب ط ٤/ ١١٤١هـ ١٩٩١م، ص:٥٤، ٦٤.

(٣) ابن عاشور: التحرير: ٦٢/ ١٠٢، ٢٠٢.

ثم صفة المرتدّين من أهل الكتاب في الآية:(٢٩) ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

ثم أشار إلى انحرافات اليهود والنصارى في الآيتين (٣٠، ٣١): ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ثم أكّد على ظهور الدين مطلقاً على المشركين والكتابيين بعد ذلك.

أما في سورة الصف فقد جاءت آية الظهور للدين بعد ذكر خطاب موسى إلى بني إسرائيل في الآية (٥): ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

ثم خطاب عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل والبشارة بـ أحمد خاتم الرسل، حيث تمّ في هذه الآيات الرّبط بين مرحلة الخطاب الاصطفائي الحصري، والخطاب العالمي، ثم إطلاق هذه العالمية في الظهور الكلّي لهذا الدّين أما في سورة الفتح فقد جاءت البشارة بالظهور الكلّي للدّين عقب ذكر الرّفض المطلق له من قبل المشركين، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

والملاحظ هنا أن الآيات الثلاث التي بشّرت بالظهور العالمي لهذا الدين، بشّرت بالمضمون وهو الدّين ولم تذكر المسمّى وهو الإسلام؛ لأن الاتّجاه إلى المضمون يحقق ثلاثة أغراض:

■ أحدها: أن المخاطبة بالمضمون فيه تجاوز لعصبيات التّدافع الدّيني الموروث تاريخياً، ومن ثمّ تنعدم لغة الحوار بين أصحاب الأديان فيفوت المقصد والغاية من مخاطبتهم ومحاورتهم.

■ ثانيهما: أن المخاطبة بالمضمون تتّجه دوماً إلى المنهج المتمثل في الهدى ودين الحق، الذي يصلح أن يكون منطلقاً لحوار أهل الأديان[1].

■ ثالثها: دفع توهّم بعضهم أن المراد بالدّين الجديد إطاره البشري القديم، فيؤدي إلى لبس أو توهّم أن الإسلام سينتشر بالأسلوب والوسائل نفسها التي تحقّقت بها نبوءات أنبياء أهل الكتاب، كالخوارق الغيبية ومن دون أسباب، وليس الأمر كذلك، بل النّصر والظهور لهذا الدين سيكون محكوماً بقوانين بشرية وسنن أرضية[2].

وأما التمكين لهذا الدّين وأهله في العالم فقد نبّأ الله به في قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥].

فالآية وعد من الله لرسوله عليه الصلاة والسلام بأنه سيجعل أمته خلفاء في الأرض، أي أئمّة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد[3]، واللام في ليستخلفنّهم جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزله القسم؛ لأنه وعد ناجز لا محالة، والمراد بالتمكين للدّين التّثبيت والتقرير، أي يجعله الله ثابتاً مقرّراً، ويوسّع لهم في البلاد ويظهر دينهم على

---

(١) أبو القاسم حاج أحمد: المرجع السابق، ص٤٣ ، 53، 63.

(٢) طه جابر العلواني: المرجع السابق، ص: ٨٥.

(٣) عماد الدين إسماعيل ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر بيروت، لبنان: ٣/ ٣.

جميع الأديان[1] والمراد بالاستخلاف القدرة على عمارة الأرض والإصلاح فيها بإقامة العدل، وليس بالظلم، وبالنظام وليس بالفوضى[2] وهذه المقاصد والأهداف لا تتحقّق إلّا على أيدي من وصفتهم الآية بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات والخطاب لا يتّجه إلى الأفراد بل يتّجه إلى الأمة بعامة التي توحّدت كلمتها وسلطانها تحت راية القرآن وتعاليم الإسلام، فالأفراد -وإن آمنوا وصلحوا- لا يمكن ولا يتيسّر لهم تحقيق ذلك المقصد العظيم المتمثل في إقامة النظام العالمي الإسلامي ولهذا السبب جعل الله تعالى هذه الأمة وسطاً بين الأمم السّالفة؛ لتكون قيّمة على غيرها من الأمم، ومؤهّلة لقيادة العالم بالحق والعدل، وشاهدة على الناس إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، فمن شهادة الرّسول المعصوم عليه الصلاة والسلام إلى شهادة الأمّة الوسط القطب التي لا تجتمع على ضلالة، والمؤهّلة في نسقها الحضاري لتتّسع للعالم بعد ذلك كله[3] هذه أهم المظاهر والدلائل على البعد العالمي في الخطاب القرآني، وأن الله تعالى قصد من خلق العالم وإيجاده إقامة نظامه العالمي الموافق لأبعاد القرآن العالمية، فالقرآن تجاوز في خطابه الرؤية الضيّقة للجنس والعشيرة والقبيلة، كما تعدّى في حدود خطابه من أنزل فيها وهم العرب إلى الأفق العالمي المتّسع لكل القوميات والشعوب، فإطلاق نصوصه وعموميتها شاهدة على ذلك كما راعى في خطابه كل المتغيرات التي تطرأ على الأوضاع البشرية والعمرانية، فجاء مرناً في أحكامه مفتوحاً على المتغيرات والتحوّلات، منسجماً مع

---

(١) الشوكاني: المرجع السابق: ٤/ ٧٤.

(٢) سيد قطب: المرجع السابق، المجلد الرابع: ٨١/ ٩٢٥٢.

(٣) طه جابر: المرجع السابق ٣١.

المستجدّات؛ ليتمكّن كلّ جيل من العمل بأحكامه وقوانينه. وهي إحدى المعجزات القرآنية الخالدة التي انفرد بها هذا الكتاب على غيره من الكتب التي لم يكتب لها الخلود والشّهود فأسباب حفظه وبقائه كامنة في خطابه العالمي الـمُعْجِز، الذي أعطى للعلم والفهم والإدراك مساحة واسعة في نصوصه، مستدعياً أولي الألباب وأولي النّهى إلى التأمل والتدبّر، والانفتاح على معانيه ومقاصده: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، إنّ المقصود بهذا الخطاب ليس العرب وحدهم، بل هو متوجه لأولي الألباب في أي زمان ومكان في العالم؛ لإدراك مكنونات الكتاب وأسراره التي لا تنكشف إلّا بمزيد التأمل والتدبر الذي لا يؤتيه كل الناس، بل هو من خصوصيات النّخبة المفكّرة العالمة ومن هنا فإن الأوساط العلمية المثقّفة يقع على عاتقها أكبر واجب في الفهم والتفسير لنصوصه بما يتلاءم وروح العصر ومقتضيات المرحلة الراهنة، التي تحاول العولمة الغربية فرض مشروعها التغريبي على العالم، في غياب المشروع القرآني المهمل من قبل أتباعه، والمتّهم من قبل أدعيائه فالقرآن لم ينزل لوقت موقّت كما يروّج له بعض المنهزمين والمنخدعين بالحضارة الغربية المعاصرة، الذين يدّعون أن الخطاب القرآني تجاوزه الزمن، ولا يعدو أن أصبح كتاباً تاريخياً لا يفيد أتباعه شيئاً في الوقت الراهن إن هذه الفرية تكذّبها شهادة التاريخ ذاته والحضارات المتعاقبة عبر الزمن، حيث استطاع الخطاب القرآني استيعاب قضايا الشّعوب التي وجدت فيه الرّحمة والعدل والحرية وإنه قادر اليوم أيضاً على إعادة التاريخ عندما تحين الظروف والأسباب الملائمة.